حول كتاب جديد

فخر الدين الثاني
وعلاقاته بدول الغرب

نظرة نقدية للخوري لويس الخازن

ليس من يجهل ان كثيرًا من الغموض يكتنف تاريخ بلادنا ، لا سيما المدة الواقعة بين اواسط القرن السادس عشر واوائل التاسع عشر . وهذه الحقبة من الزمن تعدّ بحق كمقدمة لتاريخ عصرنا الحالي ، ولتكوين نهضة بلادنا ، ولاتجاه الفكرة التي نحن عليها الآن . فكل تأليف بهذا الموضوع يصادف ارتياحًا لدى الراي العام ، ويسرّ الناس الاطلاع على مكنوناته ، وعلى قيمته العلمية . ولهذا ابسط للقرّاء كلمة مفصّلة عن تاليف الاب العالم بولس قرألي[1] .

اولًا : من حيث الطبع والشكل . يقع الكتاب في اربعمائة وتسع وثمانين صفحة بقطع الثمن كبير ، مطبوع على ورق صقيل بحرف نظيف ، مصدر بصورة الامير مأخوذة عن كتاب ماريتي (Giov. Maritti) المطبوع في ليفورنو ١٧٨٧ ، ومسطر تحتها باللغة الايطالية ما ترجمته : « فخر الدين امير الدروز الكبير » .

ثانيًا : من حيث المضمون . ينطوي الكتاب على ما يلي : من وجه ٩ — ١٨

---

١) فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ودولة توسكانا . نظام الخوري بولس قرألي . الجزء الاول باللغة الايطالية . طُبع في رومية على نفقة مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي ، ١٩٣٦

Fakhr Ad Din II. Principe del Libano e la Corte di Toscana. Reale Accademia d'Italia, 1936

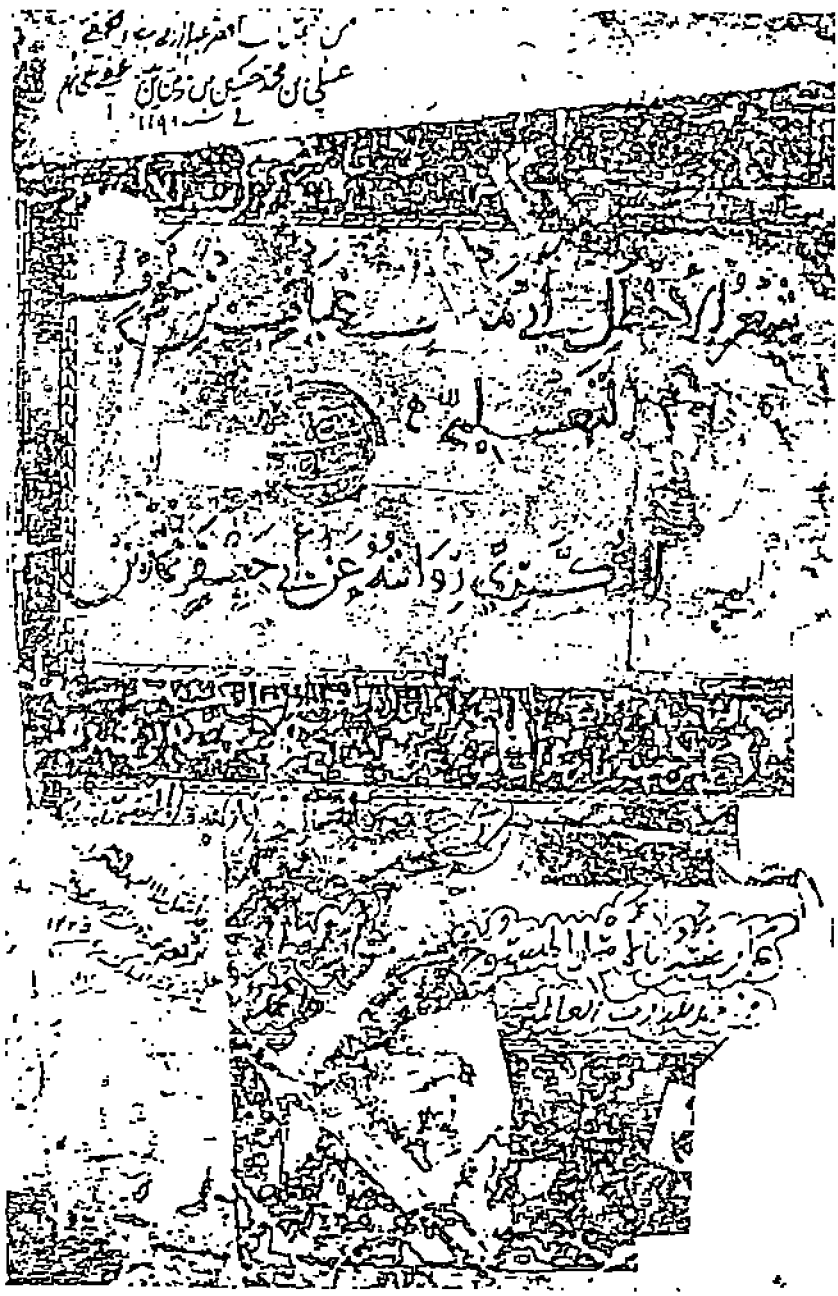

الصفحة الاولى من مخطوطة ديوان الاخطل النصرانية

الصفحة الاولى من النص الشعري

نظرة في المصادر والمؤلفات التي اخذ عنها او استند اليها المؤلف . ومن وجه ١٩ — ٢١ لمحة موجزة عن حياة الامير.

ثم من وجه ٢٣—١٣٠ مقدمة تاريخية سار فيها على النسط الآتي: من وجه ٢٣ — ٢٤ مقدمة. ومن وجه ٢٥ — ٢٩ بحث عن اخلاق الامير، وعن تضارب اقوال المؤرخين والكتاب فيه . فمنهم من صوّره ووصفه بانه كان وحشيّ الطباع والاخلاق. ومنهم من دافع عنه وصوّره مثال الشجاعة والعدل والاقدام. وحضرة الاب قرألي يميل الى الفريق الاخير.

بعد ذلك يحدثنا المؤلف من وجه ٢٩—٣١ عن ثبات الامير وشجاعته، ويأتي بنتف من اقوال المؤرخين والكتاب لينفي ما قيل من السوء عن فخر الدين ، ويظهره بمظهر الشجاع المقدام الكلي الثبات في خططه واعماله ، وينسب كل ما طرأ عليه من الشقاء والبؤس الى غلطتين : الاولى من مشيره الحاج كيوان ، ارتكبها سنة ١٦١٣ وتجشّم من جرائها عناء البعاد والنفي خمس سنوات. وهي انه تنع من الحاج كيوان وارسل ابنه علياً ، وله من العمر خمس عشرة سنة ، على رأس جيش لمناصرة الشيخ عمر ابن احمد بن قانصوه بحملة على حوران وعجلون ودمشق . فعلم بذلك الباب العالي فجرّد حملة ضدّه. وكان من امره ما كان . فاضطر ان يسافر الى اوربة.

والغلطة الثانية ارتكبها سنة ١٦٣٣ بواسطة مجلس مشيريه الاعلى فأدّت به الى حتفه. وهي تسليمه الى قائد الحملة التي سيرها لمحاربته السلطان مراد الرابع . ويتابع المؤلف من وجه ٣١ — ٣٣ المدافعة عن فخر الدين ليبين انه لم يكن قاسياً ولا ظالماً. ومن وجه ٣٣ - ٣٤ يتبسط في ذكر عدله معتمداً على البرهان من الجهة السلبية؛ ملتجأ الى ما كانت عليه الاحوال من سوء الادارة ، وعدم العدل والمساواة بين افراد الرعية قبل عهد فخر الدين، وكيف صارت في ايامه؛ مستشهداً بالقول المأثور « وبضدها تتبين الاشياء. » . ثم يشرح لنا كيف ان الامير حفظ لنفسه الحكم في القضايا الجزائية والعسكرية وترك الحكم في القضايا المدنية والحقوقية لرؤساء المذاهب.

ويتكلم بعد ذلك عن الامن العام من وجه ٣٤—٣٦ وكيف ان فخر الدين

شيَّد القلع وبنى الابراج على الاكام المشرفة على طرق القوافل وجهزها بالذخر والمؤن والجنود لتأمين حياة المسافرين والسياح وراحتهم.

ومن وجه ٣٦ — ٤٧ يصف لنا عدم تحيزه ، ومساواته بين جميع افراد الملل والطوائف التي كانت تحت حكمه . ويستهلّ المؤلف كلامه هنا عن الاسلام بما ترجمته حرفياً: «استولى الاسلام على الشرق وانكر اتباعه على المسيحيين المساواة معهم في الحقوق المدنية وضيّقوا كثيراً على حريتهم الدينية. ثم بعد ستة قرون ، اي في عهد الحملات الصليبية ، اعلنوهم كاعدائهم الطبيعيين ، وعاملوهم بعد ذهاب الصليبيين معاملة العبيد. فاصبى مال المسيحيين وشرفهم ودمهم مباحاً تحت رحمة اي مسلم كان مهما سفلت اخلاقه ومثل ذلك كان حظ اليهود بل ربما عوملوا باقلّ صرامة».

ويزعم المؤلف انه لم تحصل المساواة الا من عهد فخر الدين وصاعداً. ويتابع كلامه قائلاً ان فخر الدين ، رغم انه كان درزياً ، فقد شيَّد للمسلمين بضعة جوامع. وكان يدخل الجامع رسمياً ايام الاحتفالات. وكان عنده بين خاصته وفي بلاطه شيخ ومؤذن رافقاه الى ايطالية. وكان يسمح لذويه ولعائلته الخاصة بان يصوموا شهر رمضان ويحافظوا على الاعياد الاسلامية.

اما اليهود فكانوا مقربين اليه كثيراً. وقد سلمهم ، على الراي الراجح ، زمام ماليته حتى ان سانتي (Santi)، احد الذين ارسلهم قزما الثاني الى لبنان ١٦١٤ قال فيما كتبه « ان اليهود هم اكثر احتراماً وغنى من المسيحيين ».

ويسهب المؤلف في حسن معاملة فخر الدين للمسيحيين اجمالاً ، سواء كانوا منفصلين عن رومية او تابعين لها. وكيف انه طلب من البابا بولس الخامس بواسطة ليحثّ المسيحيين على حمل السلاح تحت لوائه ، ويهددهم بانزال الحرم الكنسي بهم اذا امتنعوا. ووعده بان يعتنق الدين المسيحي.

ويسهب ايضاً في حسن معاملة فخر الدين للغربيين اجمالاً ، وكيف انه مدّ يد المساعدة ادبياً ومالياً نحو المرسلين والرهبان من فرنسيسكان وكبوشيين ، حتى ان بعضهم ، الاب اجيديو(Egidio) توصل الى ان يكتب ١٦٢٧ الى مجمع البروباغنده المقدس بانه اصبح من المقربين الى الامير ومن ذوي الدالة عليه وعلى ذويه ،

وانه توصل الى ان يقرأ عليهم الانجيل المقدس ويعدّهم لاقتبال الدين المسيحي.

وبعد هذا انتقل المؤلف لوصف حالة الزراعة والصناعة في عهد الامير (وجه ٤٧—٥٥) فقال ان الزراعة اجمالاً وتربية الحيوانات اعتنى بها الامير اعتناء كبيراً باصلح الاساليب والوسائط الحديثة آنئذٍ. وقد انصرفت جهوده بنوع خاص الى زراعة التوت ، والزيتون ، والارز ، والكتّان ، وقصب السكر . وعُني عناية خاصة ايضاً بصناعة الصابون ، وتصريف الحرير اللبناني . وحسّن حالة الاحراش وغرس الاشجار المثمرة ، وزيّن باحات قصوره ، ولا سيما قصر بيروت ، بجنائن غنّاء. ولم تنحصر عناية الامير بالنبات فقط ، بل اجتهد في تحسين نسل الحيوانات الداجنة مثل الخيل ، والبقر ، والغنم ، والماعز ، حتى ان الكلاب نالت قسماً من عنايته . وقد اهدى الى ارشيدوكة تسكانا اربعة كلاب ، واهدته هي بدورها كلبة سرَّ بها كثيراً ورغب في ان يحصل على كلب من نوعها.

وانتقل الى التجارة (وجه ٥٥ — ٦٢) فوصف عناية الامير بها حتى اعاد ، بفضل اجتهاده ، المدن الفينيقية القديمة الى سالف عزّها وازدهار تجارتها في البحر والبر. وذلك انه بذل قصارى جهوده في تأمين راحة التجار برّاً ، وبنى الابراج الشاهقة ، مثل برج الكشاف الذي كان يعلو ستين قدماً ، لمقاومة قرصان البحر وردعهم عن التعدي على السفن الراسية في الموانئ اللبنانية لتفريغ مشحوناتها . وبفضل هذه التدابير ، ثم بفضل الخوازنة الذين تولّوا فيما بعد قنصلية فرنسة في بيروت ، اصبحت هذه المدينة اهمّ ميناء في الشرق على البحر المتوسط.

اما الكلام عن مالية فخر الدين فاستغرق ست صفحات (٦٢ — ٦٨) عرض فيها المؤلف لحسن تدبير الامير. فازدياد ريع الافراد. فتكاثر مداخيل الخزينة. ولا يخفى ان الحكّام كانوا آنئذٍ اشبه بمقاولين او ضامنين من السلطان . فكان عليهم ان يدفعوا سنوياً للباب العالي مبلغاً مقطوعاً وكان الامير فخر الدين يدفع ما هو مرتّب عليه بكل دقّة ، لا بل كان يدفع مسبقاً احياناً ليكون على مأمن من سياسة الباب العالي التي كانت على ريب من اخلاصه نحوها . وقد توصل الامير بدهائه الى عقد اتفاق مع دول الغرب. فمن كان منها على ولاء مع الباب العالي ، مثل فرنسة ، وانكلترة ، وهولندة ، والبندقية كان يحالفها جهراً. واما

الدول التي كانت على خلاف مع الاتراك مثل تسكانة ، واسبانية ، ومالطة فكان يعقد معها اتفاقاً سرياً تجارياً ومالياً . وكان يستورد من بلادها الاعتدة الحربية .

وقد خصّ المؤلف ست عشرة صفحة (٦٨ — ٨٤) بنظام الجيش ، بادئاً بالقول ان المسيحيين منذ الفتح الاسلامي اصبحوا غرباء في ديارهم لانهم كانوا يمنعون من حمل السلاح للمدافعة عن اسم وطنهم . ولكن الامير فخر الدين وحّد الكلمة وألف جيشه من المسيحيين ، ومن الدروز ، ومن المسلمين وبث روح الوطنية والإخاء بين جميع رعاياه . وبفضل هذه التدابير اصبح عنده جيش عرمرم كسر به شوكة اعدائه ، ووطّد اركان ولايته .

وكان يعاون هذا الجيش سياسة الامير ، وحنكته ، ودهاؤه (وجه ٨٤ — ١٠٨) حتى انه توصل من امارة الشوف وحده الى ان يضم تحت لوائه ولايات شاسعة الاطراف تمتد من جهة الجنوب حتى صحراء مصر ، ومن جهة الشمال الى حدود اطنه وقيليقية . واكبر فضل يسطره له التاريخ هو ضم قلوب اللبنانيين ولمّ شعثهم وتوحيد كلمتهم سياسياً واقتصادياً . فكان المسلم والمسيحي والدرزي يحاربون جنباً الى جنب ، موحدين القارب يرمون الى هدف واحد اي المدافعة عن حريتهم واستقلالهم تحت راية الامير الكبير .

اخيراً من (وجه ١٠٨ — ١٣٠) ينتقل المؤلف الى الكلام عن سياسة الامير الخارجية فيشرح لنا كيف ان فخر الدين ، بعد استيلائه على ميناء صيدا سنة ١٥٩٣ ، أخذ يفكر في تأسيس دولة مسيحية قوية على جانبه يركن اليها ضد الاتراك ، وكيف حاول ان يستفيد من مواقف الدول الغربية سواء كانوا اصدقاء مع الاتراك مثل فرنسة وانكلترة والبندقية او على خصام مثل تسكانا والكرسي الرسولي ، واسبانيا ، ومالطة والمجر . فكان يعطي لكل مقام مقالاً ويخاطب كلاً من هذه الدول حسب رغبته وميله بما يوافق رغبتها وميلها فذكر لنا صلاته مع فرنسة من (١٠٩ — ١١١) ثم مع اسبانيا (١١١ — ١١٦) ثم مع الكرسي الرسولي (١١٦ — ١٢١) ثم مع تسكانا (١٢١ — ١٣٠) .

* * *

من بعد هذه المقدمة التاريخية يبدأ المؤلف بنشر الوثائق والاسانيد ، وقد قسمها كما يلي: من عدد واحد الى عدد ٨٥ عن علائق فخر الدين وفرديناند الاول وقزما الثاني (وجه ١٣٣ — ٢٨٨) واورد في القسم الثاني الوثائق التي تتعلق بالامير وفرديناند الثاني اي من عدد ٨٦ الى عدد ١٧٢ (وجه ٢٨٩ — ٤٢٧) وضمن القسم الثالث ملحقاً عن الوثائق التي تتعلق بدولة تسكانا وخلفاء الامير. اي من عدد ١٧٣ — ١٩٤ (وجه ٤٢٩ — ٤٦٠)

* * *

هذا هو كتاب حضرة الاب قرألي من حيث المضمون . وهاكه من جهتي العلم والنقد :

اذا حق لحضرة المؤلف فضل الجامع المجتهد الباحث بعض الوثائق التاريخية من مدافنها ، وناشرها للملاء ليحيط القوم علماً بها ، فقد يشوب فضل المؤرخ العالم المدقق بعض هنات ، لان في الكتاب نواقص تفقده شيئاً من هذه الميزة. واليك بعض ذلك:

اولاً: من جهة العنوان والاسم . عنوان كتابه هكذا : « فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ودولة تسكانا » والظاهر من هذا الكلام ان المؤلف حصر بحثه في علائق الامير مع دولة تسكانا فقط بيد انه يتضح جلياً من مضمون الكتاب ، ومن كلام المؤلف نفسه (وجه ٦٢ ووجه ١١٦ — ١٢١) ومن نص الوثائق (وجه ١٩٢ — ١٩٦ ووجه ٣١١) ان البحث يدور حول علائق الامير مع دول الغرب اجمع. وعليه كان الاحرى ان يسميه فخر الدين ودول الغرب.

ثانياً: من حيث المصادر. قال لنا حضرته (وجه ١٢ و١٣) كلمة في تقدير قيمة بعض المؤلفين مثل الخالدي ، والدويهي ، وماريتي (Mariti) وروجه (Roger) ولم يتكرم علينا بكلمة عن وستنفلد الالماني (F. Wüstenfeld) الذي الف عن الامير وعن رجال عصره. ولا عن پوجه ده سان پيار (Puget de S Pierre). وقد اتى على ذكرهما في قائمة المؤلفين. فرغم انهما كتبا خصوصاً عن الامير فخر الدين وعن عصره ، لم يشأ المؤلف ان يقدمها الينا بكلمة تعريف اسوة باولئك.

ثالثاً: قال لنا حضرة المؤلف في المقدمة (وجه ١٨) انه تعب كثيراً في تأليف المقدمة التاريخية التي صدر بها كتابه (وجه ١٩ — ١٣٠) وانه اضطر في اثبات اقواله الى ذكر المصدر الذي اخذ عنه والى مراجعة المطوّلات ، وانه بجده هذا الف حياة الامير كاملة مرتكزة على اقوال المؤرخين المعاصرين.

بيد انه كان الاحرى به ان يطلق على مقدمته التي ينعتها بالتاريخية اسم مدافعة عن الامير فخر الدين (apologie) لانه من شروط العلم والتاريخ تصوير الشخص التاريخي كما كان ، لا كما يريد اونهوى ان يكون.

وحضرة المؤلف تراه مشغوفاً ببطله ، فيسميه تارة نابوليون الشرق (وجه ٣٠) وحيناً يشبهه بفكتور عمنوئيل الثاني الملقب بابي ايطالية (وجه ٨٤) . ولا يخفى ان فخر الدين توصل من الوجهة الحربية ، الى توسيع نطاق حكمه بالدهاء والرشوة اكثر مما فعل بحد السيف. وهذا واضح من قول المؤلف نفسه وجه ٩٨ و٩٩ و١٠٣ . ومن الوجهة الاستقلالية وتوحيد الدولة كان له فضل الرامي الى انشاء دولة كبيرة مستقلة. الّا ان الظروف لم تحقق حلمه.

ثم ان المؤلف نفسه يخبرنا (وجه ١٠٣) ان فخر الدين كان يفتخر بان يدعو نفسه امير صيدا او الجليل ، وكان يفضله على لقب سلطان البرّ الذي حازه من لدن السلطان ١٦٢٥ (وجه ١٠١) وفي المدة الاخيرة فقط اضاف الى اسمه امير جبل لبنان.

ثم بينا نرى المؤلف يحذرنا (وجه ١٣) بان الاب روجه Roger يميل في رواياته الى الخيال ، نراه يستند اليه في الكثير من رواياته.

رابعاً: نرى حضرة الاب قرألي ينسى احياناً ما قاله. فيظهر لنا مثلاً فخر الدين مثال العدالة (وجه ٣٧) ثم يقول لنا (وجه ٩٨) انه كان يقطع انفاس كل من يتذمّر منه او يطالبه بعدل.

اخيراً: ان المؤلف لا يقول لنا كلمة تجلو بعض الغوامض ممّا تهمّ القارئ معرفته فقد تكلم مثلاً (وجه ٥٠) عن رماد عشبة تصلح لعمل الزجاج وروى ما قاله الاب دنديني (Dandini) ، الذي ساح في بلادنا سنة ١٥٩٦ ، وذكر انه شاهد في طرابلس خمسين او ستين جملاً محملة رماد عشبة كان يُرسل الى البندقية

لعسل الزجاج . ولم يقل لنا ، ولو في حاشية صغيرة ، هل كان مدار الكلام حقيقةً على رماد عشبة ، وما هي هذه العشبة .

ومثل ذلك قل عن الاشخاص الذين مثلوا دوراً كبيراً على مسرح حياة الامير : فمن هو الحاج كيوان ؟ ومن هو المطران جرجس مارون الذي كان سفير الامير لدى البابا ولدى دولة تسكانا ؟ ومثله قل عن الاشخاص الذين اتى على ذكرهم .

الخلاصة انك لا تحصل بعد قراءة كتاب المؤلف على صورة واضحة طبق الاصل للامير فخر الدين ، ولا لعصره ، ولا لرجال حاشيته ، ولا لعلاقته مع دول الغرب . انما قيمة الكتاب كبيرة بما نشره من الوثائق التاريخية .

* * *

هذا ما عنّ لنا تبيانه ، وهو قليل من كثير . وقد اتينا على ذكره علّ المؤلف يتدارك ما سها عنه في جزئه الثاني . وغير خاف على احد ان كل هذه الهفوات لا تعيب نضار الكتاب لانه من الاهمية بمكان عالٍ . ولحضرة واضعه مزيد الشكر لما بذله من الجهود الجبارة في سبيل جمعه وترتيبه ونشره .